

فريتز شتبات المستشرق الألماني الراحل فهم الشرق وحذر من الفوبيا الإسلامية

عبد الرؤوف سنو
أستاذ في الجامعة اللبنانية

رحل عالم الإسلاميات البروفسور الألماني فريتز شتبات (1923 – 2006) أثناء عدوان إسرائيل على لبنان، هذا البلد الذي أحبه الراحل الكبير واحتل مكانة خاصة عنده كملتقى فريد للثقافات والتعايش الطوائفي. لقد عرف شتبات لبنان عن قرب، وساعدته إقامته الطويلة فيه وفي البلدان العربية على الاحتكاك المباشر مع الشرق الإسلامي، حضارة وعقيدة ومجتمعاً، في حين مكنته أبحاثه من أن يكون مفسراً للعلاقات بين الشرق والغرب وجسراً بينهما كي يتعايشا ويتعاونان معاً كجارين غير منفصلين عن بعضهما.

نال شتبات شهادة الدكتوراه عام 1954 عن أطروحته "القومية والإسلام عند مصطفى كامل". ما بين عامي 1954 و1959، عمل مديراً لمعهد غوتيه في القاهرة، ممّا ساعده على كتابة أطروحة الأستاذية عن تطوّر التعليم الحديث في مصر. وفي عام 1969، عُيّن أستاذاً للغة العربية والدراسات الإسلامية ثم مديراً لـ "معهد العلوم الإسلامية" في جامعة برلين الحرة. وبين عامي 1963 و1968، عاد شتبات مرّة أخرى إلى البلاد العربية ليرأس "المعهد الألماني للأبحاث الشرقية" في بيروت.

بين عامي 1944 و1996، أصدر شتبات عشرات المؤلفات والدراسات عن الإسلام عامّة، شملت موضوعات دينية واجتماعية وسياسية. ومن ضمن دراساته العديدة، تستوقفنا تلك التي تتعلق بالإسلام المعاصر ومصر الناصرية وتاريخ الصراع العربي – الإسرائيلي. إن الكثير من آراء شتبات ونظرياته تنتقد مقولة "الإرهاب الإسلامي"، وترفض قيام كيان إسرائيلي على حساب الحقوق الوطنية للفلسطينيين، وسياسة العدوان التي تقوم بها الدولة العبرية.

شتبات والإسلام المعاصر

لم يكن الشرق الإسلامي بالنسبة إلى شتبات عالم حضارة غريب، ولم ينظر إليه على أنه هدف استعماري. كما لم يكن الشرق الإسلامي عنده عدواً يهدد الغرب المسيحي. لقد نظر هذا العالم إلى الشرق على أنه جار كبير ومهم لأوروبا المسيحية، التي عليها أن تسعى إلى فهمه لكي تتعايش معه وتتعاون. وهذا "الفهم"، لا يمكن الوصول إليه برأيه، إلا من خلال حوار هادئ يؤدي إلى تلاقح عالمي بين الإنسان المسلم في الشرق وشريكه الإنسان المسيحي في الغرب، وحدث تفاعل حضاري متبادل، حيث يوقّر الدينان السماويان، المسيحية والإسلام، مقومات هذا الحوار – التلاقي.

انطلاقاً من هذه الرؤية الموضوعية والمتسامحة، يرفض شتبات الحرب الدائرة اليوم على الإسلام تحت شعار "محاربة الإرهاب". فينتقد بشدة من يتحدث عن عداوة ألف عام بين المسيحية والإسلام.

وحول "العدوانية" الإسلامية، يرى شتبات أن الوضع التاريخي الراهن والإحباط هما مسببان لها، وأن أسبابها الخارجية هي إلى التجربة مع الاستعمار، ودعم الغرب أنظمة حكم إسلامية تمثل مصالحه، فضلاً عن تبعية البلدان العربية لـ "النظام العالمي الظالم". وفي رأيه، فإن طروحات الغرب حول العدالة والديمقراطية وحق تقرير المصير، تتجسد متناقضة على أرض الواقع: هيمنة وإشباع مصالح. ويعطي على ذلك مثلاً صارخاً: قضية فلسطين وحرب الخليج الثانية، حيث لا تُطبّق قرارات الأمم المتحدة على إسرائيل، ويتم السكوت عن استيلائها على الأراضي العربية، بينما تصافرت قوى الغرب لإخراج العراق من الكويت. أما الأسباب الداخلية لعدوانية الإسلام، فيحددها تحت عنوان عريض "عدم كفاية التنمية الاجتماعية - الاقتصادية"، واستياء الشعوب العربية من الحكومات والأنظمة الحاكمة وغياب الديمقراطية، وأخيراً خيبة الأمل من الفشل في تحقيق حلّ المشكلات الاجتماعية والاقتصادية من خلال "موديلات" القومية والليبرالية والاشتراكية، التي اعتبرها المسلمون "مستوردات أجنبية". هذا الإحباط، هو الذي جعل المسلمين، برأي شتبات، "يعودون" إلى دينهم، الذي ظهر عنصر هوية في السنوات الأخيرة.

إن رفض شتبات لمقولة "العدوانية" الإسلامية وتأكيداته على تعايش الإسلام والمسيحية، تبرز من خلال رفضه نظرية صموئيل هنتنغتون حول صراع الحضارات، التي تضع الإسلام في مواجهة مع المسيحية، بعدما أصبح الإسلام بنظر بعضهم خطراً على العالم الحر بعد سقوط الاتحاد السوفياتي وانحسار الشيوعية، وهذا يقود إلى نتائج وخيمة، حيث يُصور الإسلام على أنه العدو الأول للمسيحية. فيقول إن "هذا تفكير خطأ، إذ لا الإسلام ولا المسيحية يطمحان إلى الحرب".

يحدّر شتبات في الوقت نفسه الغرب من أنّ الحديث عن "الخطر الإسلامي" و"الإرهاب الإسلامي" سوف يؤدي إلى نتائج وخيمة ثلاث:

- 1- منع تقصي الأسباب الحقيقية لنشوء الحركات الأصولية، وبالتالي إزالة تلك الأسباب،
- 2- تغذية الحقد ضد الأجانب من المسلمين والعرب في المجتمعات الغربية نتيجة تشويه صورة الإسلام،
- 3- دفع المسلمين إلى مزيد من "التعصب" كردّ فعل على نظرية "الخطر الإسلامي"، ممّا يعزز مقولة وجوب التصدي للإسلام وتدميره.

إن موقف شتبات الداعي إلى فهم الإسلام والتعاطي معه بانفتاح وحوار واحترام، جعله يردّ بعنف على الحملة التي تعرّضت لها عالمة الإسلاميات الألمانية أتماري شيميل بعد تصديها لرواية سلمان رشدي المعروفة. قال شتبات: "إن مهمة عالم الإسلاميات أن يقول للرأي العام الغربي إن إهانة النبي هي مسألة خطيرة بالنسبة إلى كل مسلم" فعندما يجعل المرء من النبي مهذلة ويصف زوجاته بالعاشرات، فإن هذا يمسّ قواعد الإسلام الأساسية"

- شتبات والقومية العربية

يعتبر شتبات أن "اليقظة القومية" نشأت كحركة تاريخية ضرورية تجاه الخارج (تفوق الغرب سياسياً واقتصادياً) وتجاه الداخل، ضد النظام التقليدي. وبرأيه، نشأت هذه اليقظة في مصر أولاً على شكل ثقافة تغذت من الصراع ضد الاحتلال البريطاني، لكنها تأخرت في بلاد الشام بفعل تأثير سياسة "الجامعة الإسلامية" للسلطان عبد الحميد الثاني. ويعتقد أن إرهابات اليقظة القومية في بلاد الشام تعود إلى النصف الثاني من القرن التاسع عشر عبر الجمعيات الأدبية والعلمية والحركات السرية لإنشاء "وطن سوري". ويضيف، أن بريطانيا وظفت المشاعر القومية العربية وتلاعبت بها في سبيل تحقيق مآربها لسلخ العرب عن العثمانيين، وإن مراسلاتها حسين-مكماهون حملت معاني غامضة، بحيث اعتقد الشريف حسين أن بريطانيا تؤيد أيضاً استقلال فلسطين.

ورغم إخفاق أول مشروع دولة عربية موحدة في المشرق عام 1920 (الحكومة العربية في دمشق)، يعتقد شتبات أن هناك مقومات تصلح لتوحيد العرب، وفي مقدمتها قوة الإسلام وعالميته التي جعلت كل بلد عربي يتطلع، رغم خصوصياته، إلى خارج حدوده الوطنية. وبرأيه، إن الرغبة في التحرر من الانتداب الأجنبي، كانا عاملاً مهماً في زيادة الوعي القومي العربي، إذ شهدت الثلاثينات من القرن العشرين حركة عربية أجهت نحو مقاومة مشروع صهيئة فلسطين والتخلص من الحكم الأجنبي. لكن رهان العرب على بريطانيا في الحرب العالمية الأولى، وعلى ألمانيا في الحرب العالمية الثانية، وليس على قدراتهم الذاتية، أدى إلى الإخفاق. كما أن إنشاء "جامعة الدول العربية"، كمشروع بريطاني، لم يحقق للعرب تطلعاتهم الوحودية. من هنا، ينبه شتبات العرب إلى أن "التضامن القومي أو الوحدة سوف يجعل منهم قوة كبيرة أكثر منهم دولاً متفرقة".

- شتبات والقضية الفلسطينية

يرى شتبات أن "المسألة اليهودية" هي محض أوروبية، ولم تكن أبداً مسألة إسلامية على الإطلاق. ويعتقد أن اللاسامية ظهرت في المجتمعات الأوروبية مع نمو الحركات القومية والشعبية، وإن اضطهاد اليهود في أوروبا، ثم على يد هتلر وعدم دمجهم أو اندماجهم في المجتمعات الأوروبية، هو الذي ساعد على بزوغ "قومية يهودية" كان الدين العامل المحرك لها. ويقر شتبات بحق اليهود في وطن قومي، إلا أنه يفضل لو نجحت فكرة دمجهم في المجتمع الأوروبي، لكان هذا أفضل لهم وللعالم. ورأى إن إصرار الحركة الصهيونية على وطن قومي يهودي لا يسوغ اختيارها فلسطين، التي سكنها شعب عربي منذ ألف عام، فيقول: "كان عليهم (اليهود) أن يفتشوا عن أرض خالية في أي مكان من العالم، حيث لا يواجهون مقاومة"، لكنه يعود ويستدرك قائلاً: "إن القومية ليست عقلانية على الدوام". لكن شتبات، يجمل في الوقت نفسه بريطانيا وألمانيا مسؤولية إنشاء الكيان الصهيوني "الغريب والمتحالف مع الإمبريالية". أرادته بريطانيا حليفاً لها على مقربة من قناة السويس (إسرائيل) على حساب عروبة فلسطين من دون وازع أخلاقي منتهكة بذلك حقوقاً عربية حيوية، في حين ساعدت ألمانيا هتلرية على إنشاء هذا الكيان من خلال ترحيل اليهود الألمان الاندماجين إلى فلسطين أو اضطهادهم لدفعهم إلى الهجرة. كما ينتقد الأسرة الهاشمية في الحجاز لعدم معارضتها الهجرة الصهيونية إلى فلسطين.

فاعتبر أن إنشاء إسرائيل كـ "كيان غريب ومتحالف مع القوى الإمبريالية" في قلب الأمة العربية، هو ضد حركة التاريخ، التي كان يجب أن تؤدي إلى إعطاء الشعب الفلسطيني استقلاله الوطني وحقه في تقرير مصيره. وكتب يقول: "لا يمكننا ... أن نتجاهل أن إنشاء الدولة اليهودية قد انتهك حقوقاً عربية حيوية، وإن العرب أنفسهم يشعرون أنهم مهددون من خلال ذلك، وإن اعتداءً قد أصاب كرامتهم، وإن إنشاء إسرائيل هو سبب النزاع في الشرق الأدنى، وإن سياستها تمنع وبشكل خطير وضع حد لهذا الصراع...".

يعتقد شتبات أن أسباباً اجتماعية وإقتصادية جعلتهم "يكرهون" اليهود، وهي إخلال هؤلاء بالنظام القديم، وانتهاكهم للعادات المحلية واستفزازهم للسكان، وأخيراً استحوادهم على الأراضي وطرد الفلاحين الفلسطينيين منها. ويعتقد أن الوعي القومي الفلسطيني وجد منذ الأربعينيات ونمى خلال الستينيات من القرن العشرين في مخيمات اللاجئين في البلاد العربية وبمعزل عن القيادات التقليدية الفلسطينية، وتوج بإنشاء منظمة التحرير الفلسطينية، التي تطلعت للحصول على الحقوق نفسها التي تتمتع بها الشعوب الأخرى. أخيراً، يقر أستاذنا الراحل بحق إسرائيل في الوجود. لكنه لا يرى سلاماً في المنطقة خارج التعايش بين اليهود والعرب.

- شتبات وعبد الناصر

ما يلفت النظر في البروفسور شتبات حماسة غير معهودة لدى علماء الإسلاميات تجاه الثورة المصرية. وإذا علمنا أن كتاباته عن عبد الناصر وعن الثورة المصرية قد وضعت في أوائل الستينيات من القرن المنصرم، أي في ذروة الهجمة الغربية ضد الزعيم المصري والقومية العربية، لأدركنا على الفور مدى الشجاعة والموضوعية اللتين تحلّى بهما عالم أجنبي شاب وهو يصف بإعجاب تلك التحولات التي أتت بها الثورة المصرية. ويؤكد شتبات أن حرب فلسطين ونتائجها، ومعركة الاستقلال وحرب السويس، ومحاولات ربط المنطقة بأحلاف غربية، صاغت جميعها الاتجاهات العربية عند عبد الناصر وأكسبته سمعة عالية وألفت بينه وبين الجماهير. وبسبب هذه الاتجاهات، استجاب عبد الناصر لإلحاح السوريين في الوحدة، ولم يصطدم معهم عندما حصل الانفصال، لأنه كان يؤمن بأن الوحدة لا تتم إلا عن طريق الحوار القومي الحر، على حد قول شتبات.

- شتبات والصراع العربي - الإسرائيلي

يرى شتبات أن إسرائيل عملت على تحقيق هدفين رئيسيين: توسيع حدودها، وإجبار العرب على الاعتراف بوجودها. فكانت هي من أطلق الرصاصة الأولى في حربي 1956 و1967. فيطرح مسؤولية عبد الناصر عن اندلاع حرب عام 1967. فيجيب أن الزعيم المصري لم يكن يريد حرباً مع إسرائيل، ولا تدمير الدولة العبرية في تلك المرحلة، على عكس سورية، التي جعلته يوقع معها اتفاقية دفاع مشترك. ويقدم شتبات سلسلة من الوقائع تدعم فرضيته هذه في أن مصر لم تهيئ لحرب ضد إسرائيل، ويضيف، أن تحرك الجيش المصري إلى سيناء في أيار 1967 رداً على تهديدات إسرائيلية ضد سورية، ما كان سوى مظاهرة لتحقيق كسب سياسي على إسرائيل يُلغي انتصاراتها التي كانت قد حققتها في عام 1956، ولتقوية مركز عبد الناصر في العالم العربي. ويقول إن الرئيس المصري كان يفرق بين رغبته في إزالة إسرائيل من الوجود وعدم توافر إمكانية تحقيق ذلك.

وفي المقابل، حدّد شتبات خطّابيّ ارتكبهما الرئيس المصريّ وهما: تحريك قوّاته إلى العقبة وإغلاق مضيق شرم الشيخ، معطياً إسرائيل ذريعة مهاجمته، واعتقاده أنّ الأزمة المتصاعدة بين بلاده وإسرائيل سوف تبقى في إطار النزاع السياسيّ. ويشير إلى أنّ موسكو ضللت مصر بمعلومات حول نوايا إسرائيل العدوانية تجاه سورية، وشجّعت ناصر على تصعيد الأزمة بهدف تدعيم مركزها في المنطقة، من دون أن توضح له موقفها في حال لحقت الهزيمة به على يد إسرائيل. ويشير إلى مسؤوليّة إسرائيل عن اندلاع الحرب بتشجيع من أميركا التي وعدتها بالحفاظ على وجودها ومنع تدميرها.

أخيراً، يعتقد شتبات أنّ إسرائيل لو أخلت المناطق العربية المحتلة عام 1967، لما اندلعت حرب عام 1973. ويؤكد أنّ العرب كانوا بعد حرب عام 1967 على استعداد للإنضمام إلى عملية سلام في المنطقة، لكن إسرائيل لم تردّ التخلي عن مكاسبها، ما جعلهم يطلقون الرصاص الأولى عام 1973. أخيراً، ينتقد شتبات سياسة إسرائيل في المناطق العربية، متسائلاً عن كيفية استعادة العرب أراضيهم المحتلة بواسطة المفاوضات فيما تواصل إسرائيل سياسة الاستيطان.

لقد نبعت مواقف شتبات تجاه كلّ الموضوعات الإسلاميّة والعربيّة التي كرّس حياته لدراستها، من شجاعة نادرة، موضوعيّة علميّة، ليبراليّة، مسيحيّة متسامحة، إنسانيّة منفتحة، انسجام مع الذات، انصهرت كلّها معاً لتكوّن عالِم الإسلاميات فريتز شتبات وتخلده صديقاً للإنسانيّة وللعرب والمسلمين.